

التربية والتغير الاجتماعي عند مالك بن نبي

د. الكبار عبد العزيز

د. صغير حياة

قسم العلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان

ملخص:

تعتبر التربية عملية اجتماعية مستمرة تهدف إلى تشكيل وصياغة المواطن العصري والعقلاني ، وقد حظيت بأهمية كبيرة عند المفكر مالك بن نبي ، الذي تصور أنها وسيلة للتغير الاجتماعي ، وقد حدد شروط هذا التغير في مبادئ أربعة متمثلة في المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي والمنطق العملي والعلم أو الصناعة ، وتتميز هذه المبادئ بالفعالية والتكامل ، وتشكل نظاما تربويا يساهم في البناء الحضاري للعالم الإسلامي .

الكلمات المفتاحية: التربية، التغير الاجتماعي، الثقافة، الأخلاق، الجمال، العلم.

Résumé:

L'éducation est un processus social continu visant à former ou façonner un citoyen moderne et rationnel, C'était d'une grande importance pour l'intellectuel Malik bin Nabi qui l'a conçu comme un moyen de changement social. Il a défini les conditions de ce changement en quatre principes : moral, esthétique, la logique pratique et la science ou l'industrie. Ces principes sont caractérisés par leur efficacité et leur complémentarité et constituent un système éducatif qui contribue à la construction culturelle du monde islamique.

les mots clés: Éducation, changement social, culture, éthique, esthétique, science.

Abstract:

Education is a continuous social process aiming to form or to shape a modern and rational citizen. It was of great importance to the intellectual Malik bin Nabi who conceived it as a means of social change. He defined the conditions of this change in four principles: moral, aesthetic, practical logic and science or industry. These principles are characterized by their effectiveness and complementarity and constitute an educational system that contributes to the cultural construction of the Islamic world.

key words: Education, social change, culture, ethics, aesthetics, science.

مقدمة:

تعتبر التربية في مجال علم الاجتماع عملية اجتماعية مستمرة تهدف إلى تشكيل وصياغة النموذج الاجتماعي المتمثل في المواطن العصري والعقلاني ، الذي يشكل حجر الزاوية في بناء المشروع الاجتماعي ، حيث كشفت التجارب التنموية في العالم العربي والإسلامي فشلها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي ... وتبين لها أن هذه التجارب قد أغفلت دور الإنسان وأهميته في إنجاحها ، وأن نهضة الأمم والشعوب تقوم أولاً : بتكوين الرأسمال البشري وثانياً: بإنتاج الرأسمال المفاهيمي ، أي عالم الأفكار .

كان مالك بن نبي (1905-1973) من بين أبرز المفكرين في العالم العربي والإسلامي الذين أشاروا في كتاباتهم إلى دور الإنسان في عملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري ، حيث قام بنقد طروحات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده حول مفهوم الإصلاح من حيث منطلقاته وطرقه وأهدافه ... وأسس نظرية جديدة تعتمد على دور التربية في تغيير الإنسان وتمكينه من عملية البناء الحضاري.

يحاول هذا المقال الإجابة عن التساؤلات التالية: ما هو التجاوز المعرفي الذي أحدثه مالك بن نبي مع دعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي وبخاصة مع جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده في العالم الإسلامي ؟ كيف تساهم التربية في تغيير المجتمع ؟ وما هي الأسس التي تركز عليها هذه العملية الاجتماعية ؟ وهل يمكن لهذه الأسس الإسهام في إعادة البناء الحضاري للعالم العربي والإسلامي ؟

- التغيير الاجتماعي بين عند مالك بن نبي و جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده:

يعد مفهوم الإنسان عنصراً بنوياً في فكر مالك بن نبي الحضاري، حيث هيمن على جل مؤلفاته وكتاباته واعتبره أول منطلق لبناء مشروع حضاري، ولكن لا بد ونحن نتحدث عن الإنسان كما يتصوره مالك بن نبي أن نشير إلى ذلك النقاش العميق الذي خاضه مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و تحديداً، حيث يجمع هذا النقاش بين الاتفاق تارة والخلاف تارة أخرى.

وإذا استطعنا الكشف عن ملامح هذا النقاش، والحسم في نظرة المصلحين الثلاثة حول منهج التغيير وأوليائه وبيان نقاط الاتفاق والخلاف نتمكن عندئذ من بيان ومعرفة المسار الفكري الذي اتخذه فكر مالك بن نبي في تحديده لمفهوم الإنسان ودوره في التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري.

تكمن نقاط الاتفاق بين مالك بن نبي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في انتماء نهم للتصور الإسلامي، أي أنهم يمثلون امتداداً للمدرسة الإسلامية التي تركز في تصورهما

للكون والإنسان والمجتمع على القرآن والسنة النبوية الشريفة، وانشغلوا كلهم بفكرة الإصلاح والتغيير وكيفيات بناء حضارة إسلامية، وتتضح نقاط الخلاف على مستوى المنهج والرؤية.

هذا الخلاف يمكننا من رصد التجاوز الذي أحدثه مالك بن نبي مع الشيخين الأفغاني ومحمد عبده ، والذي يعبر في حقيقة الأمر عن قفزة نوعية ووجهة نظر مغايرة في فكر مالك بن نبي تتجلى في طرح أولوية الرأسمال البشري من حيث بنائه وتشكيله وصياغته ، وتأهيله للقيام بوظائفه المتمثلة في التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري .إن الإشكال الذي يفرض نفسه علينا في هذا الاتجاه قوامه: أين تكمن هذه القطيعة وهذا التجاوز مع الحركة الإصلاحية الإسلامية ؟

- القطيعة مع الإصلاح السياسي عند جمال الدين الأفغاني:

يرى مالك بن نبي أن منهج الأفغاني في الإصلاح قد سعى إلى مقاومة أنظمة الحكم السائدة في عصره وإعادة بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي، كما أنه كافح المذاهب الفلسفية وخاصة التيارات المادية والطبيعية.¹

لقد هيمن على الأفغاني طيلة حياته فكرة تتعلق بنهوض العالم الإسلامي من الناحية السياسية، فكان يدعو إلى ضرورة إزالة الاستعمار من العالم الإسلامي، فانسجم نشاطه بالطابع السياسي معتمدا على الأدلة الدينية لتحقيق هدفه.يقول سليم بك العنحوري: "إنه في خلال سنة 1878، زاد مركزه خطرا لأنه تدخل في السياسة، وأخذ يقرب منه العوام، ويقول لهم في أثناء كلامه ما معناه: " إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستبداد، وربيتم في حجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عبئ نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين. تسومكم حكوماتكم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، وتستنزف قوام حياتكم التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم- بالعصا والمقرعة والسوط، وأنتم صامتون. فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة..."²

لقد كان العالم الإسلامي يعاني من الفرقة والشتات فتصور الأفغاني أن الوحدة الإسلامية أساس قوته، فضل طول حياته ينهض بهذه الدعوة، وينادي بضرورتها في كل مناسبة، وفي كل مكان يحل به، فأنشأ " جمعية أم القرى" وهو في مكة، وألف جماعة " العروة الوثقى" وهو في باريس من مسلمي الهند ومصر وشمال إفريقيا وسوريا، وأصدر بالاشتراك مع محمد عبده مجلة " العروة الوثقى" لسانا لحالها وتعبيرا عن أغراضها، وكان هدفها وحدة المسلمين، وإنقاذهم من سباتهم، وتنبيههم إلى المخاطر التي كانت تهددهم، وإرشادهم إلى سبيل مواجهتها والتغلب عليها.³

وقد أجمع الباحثون في فكر الأفغاني على أن منهجه يتسم بالطابع الثوري لأنه كان يعتقد أن الثورة السياسية أسرع الطرق في تحرير الشعوب الإسلامية، أما الاعتماد على التعليم أو المنهج التربوي فكان يراه بطيئاً جداً ولا يحقق أهدافه المنشودة.⁴

يشير مالك بن نبي في تقييمه لمنهج الإصلاح السياسي عند الأفغاني إلى محاسنه، وإلى مواطن الخلل فيه، فلقد كان الأفغاني مجاهداً ذا مزاج حاد يمتلك ثقافة فريدة، وكان منهجه الإصلاحية يهدف للرد على الطبيعيين وبيان تهافتهم، وإليه يرجع الفضل في إيقاظ العالم الإسلامي من سباته وجهله وتخلفه. يقول مالك بن نبي: "...لقد كان قبل كل شيء مجاهداً، ولم تكن ثقافته النادرة سوى وسيلة جدلية، مهما هبطت أحياناً إلى مستوى الجماهير، فأصبحت وسيلة نشاط ثوري. لقد كان لهذا النشاط أهمية نفسية وأدبية أكثر من أن تكون له أهمية سياسية في العصر الذي كان يعيش فيه، حين كان العالم الإسلامي غارقاً في خمول شامل وكان من فائدة هذا النشاط أنه فجر المأساة الإسلامية في الضمير المسلم ذاته".⁵

ويبدو أن جوهر الخلاف بين مالك بن نبي والأفغاني قد تجلّى في أنه إذا كان الأفغاني يتصور أن نهضة الأمة الإسلامية لا تتأتى إلا بإصلاح سياسي يتخذ من الثورة أسلوباً لتحقيق هذا المقصد، فإن منهج مالك بن نبي في الإصلاح يستهدف أولاً تغيير الإنسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين.

نعتقد أننا قد أوضحنا التجاوز الذي أحدثه مالك بن نبي مع الإصلاح السياسي عند الأفغاني لننتقل إلى التجاوز الذي أحدثه مع الإصلاح الاجتماعي عند محمد عبده لنبرز أوجه الاتفاق وأوجه الخلاف بينهما.

- القطيعة مع الإصلاح الاجتماعي عند محمد عبده :

كان محمد عبده في بداية حياته مندفعاً وراء التيار السياسي حيث شارك في الثورة العربية سنة 1882، وبعد فشل هذه الثورة قبض عليه وسجن وحكم عليه بالنفي إلى بيروت، ومنها دعاه جمال الدين الأفغاني إلى باريس حيث أسس بها جريدة العروى الوثقى⁶. ولكن يبدو أن محمد عبده لم يكن مقتنعاً بالإصلاح السياسي الذي نادى به الأفغاني، هذه القناعة قد تجلّت وبخاصة بعد فشل الثورة العربية، لذا اتخذ وجهة مغايرة في الإصلاح تمثلت في الإصلاح الاجتماعي.

تصوّر محمد عبده أن الإصلاح الاجتماعي من أنجع السبل لإنقاذ العالم الإسلامي من تخلفه وفقره وسوء حاله، ويقوم هذا الإصلاح على ترشيد العقل بتثقيفه وتهذيبه وتحريره من

الخرافات والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر ،كما أوضح أن اعتناق الشعوب وتحررها من الاستعمار تأتي كمرحلة لاحقة لأن العلم- على حد تعبيره- عماد الاستقلال وأساس المدنية الحديثة.⁷

فإذا كان الأفغاني قد نظر إلى المأساة الإسلامية من زاوية سياسية، فإن محمد عبده قد وصفها بأنها مشكلة اجتماعية، والخطوة الأولى التي ارتكز عليها في مشروعه الإصلاحية تمثلت في إصلاح الفرد، وقد استمد هذا المنهج من النص القرآني في قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. [سورة الرعد/ الآية: 11] .

اعتقد محمد عبده في منهجه الإصلاحية أن تغيير الفرد لا يتأتى إلا بإصلاح علم الكلام، وإعادة بناء عقيدة الإنسان المسلم وترسيخها، ولكن إذا كان محمد عبده ومالك بن نبي قد أعطيا حق السبق في تغيير الفرد فإن مالك يعترض على أن يكون هذا التغيير من زاوية إصلاح علم الكلام لأنه - وعلى حد تعبير مالك بن نبي - علم الكلام هو علم الاعتقاد لا يهتم بدراسة الوظيفة الاجتماعية للدين. يقول مالك بن نبي: " علم الكلام لا يتصل في الواقع بمشكلة النفس إلا في ميدان العقيدة أو المبدأ والمسلم حتى المسلم ما بعد الموحدين لم يتخل عن عقيدته فلقد ظل مؤمنا- وبعبارة أدق- ظل مؤمنا متدينا ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية وصار إيمان فرد متحلل من صلاته بالوسط الاجتماعي: وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، ولكن المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة".⁸

ونلخص من هذا القول إنه إذا كان محمد عبده يرى أن مشكلة الإنسان المسلم مشكلة عقدية ، فإن مالك بن نبي يتصورها مشكلة اجتماعية وحضارية ، وعلى هذا الأساس، يرى مالك بن نبي أن مشكلة إصلاح الفرد ليست مرتبطة بعلم الكلام، بل إن المشكلة تتجلى عنده في تأثير العقيدة على سلوك الفرد وجعله سلوكا اجتماعيا مؤثرا وفاعلا في المجتمع، فالعلاقة إذا هي علاقة تكامل بين الدافع الداخلي الديني والسلوك الاجتماعي وعليه يبين مالك بن نبي المنهج الحقيقي للإصلاح في قوله: "...يهدف الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب تلك الجماهير المتعطشة إلى انتفاضة القلب كي تنتصر على ما أصابها من جمود".⁹

وعلى ضوء رصد مالك بن نبي لمنهج الإصلاح بشقيه السياسي والاجتماعي عند الأفغاني ومحمد عبده، وبيان حدوده، يصل في نهاية المطاف إلى إحداث التجاوز كما سبق

أن أوضحنا وإلى بناء تصور جديد يمنح فيه للإنسان مكانة هامة، ويعتبره حجر الزاوية في التعبير الاجتماعي والبناء الحضاري.

- التربية وأسس التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: 2

يتصور مالك بن نبي أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه يكتسب من مجتمعه نسقا من القيم والمعايير الثقافية والاجتماعية، ويخضع لقوانين التغيير الاجتماعي ، أي أن أنماطه السلوكية والفكرية تتغير من حالة إلى حالة أخرى، ومن وضع إلى وضع آخر تبعا للتحويلات التي تحدث على مستوى بنيات المجتمع وأصعده. يقول مالك بن نبي: "...إن الإنسان لا يتغير بوصفه كائنا حيا في حدود التاريخ، وإنما يتغير بوصفه كائنا اجتماعيا تغيره الظروف، فإن التاريخ يعجز عن أن يغير شعرة واحدة في الإنسان، ولكنه يستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية، وفعاليته من ناحية المنطق العملي".¹⁰

لا يستهدف منهج التغيير عند مالك بن نبي الإنسان بصفته كائنا طبيعيا خلقه الله ووضع فيه تكريمه، هذا الكائن لا تمسه يد التاريخ بتغيير، وإنما التغيير يمس الإنسان بصفته كائن اجتماعي، وهي التي تكون ميزة الفاعلية فيه تعلي من قيمته الاجتماعية في ظروف معينة.¹¹

ليست التربية عند مالك بن نبي أسلوبا للضبط الاجتماعي فقط، وإنما عملية اجتماعية ونفسية تسهم في صناعة الإنسان وتنمي وعيه وتضبط سلوكه، فهي تعمل على تكيفه وتحقيق توازنه النفسي والاجتماعي، غير أن هذا التغيير لا ينزل وحيا من السماء، وليس هبة من الطبيعة ولا يجده الإنسان جاهزا في مجتمعه، بل إنه فعل إرادي يحدثه الإنسان على ذاته يمنحه القدرة على التغيير الاجتماعي ، ويستمد مالك بن نبي هذا التصور من النص القرآني : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (سورة الرعد الآية: 11)**

والتربية عند مالك بن نبي وسيلة لنقل كل العناصر والنماذج الثقافية الفاعلة في المجتمع لذلك تصور أن الثقافة نظام تربوي يحدد أسلوب حضارة ويمنحها القدرة على الإبداع والاستمرارية، وتتمثل الثقافة من حيث إنها نظام تربوي في المبادئ الأربعة التالية: المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي والمنطق العلمي والعلم أو الصناعة، يقول مالك بن نبي: **"فلو أننا حللنا واقعا اجتماعيا، وأعني نشاطا اجتماعيا محسا فسنجد فيه على الفور وفي حالته الراهنة أو في اطراد تطوره أربعة عناصر أساسية يمكن أن نطلق عليها، المنهج الأخلاقي والذوق الجمالي والصناعة والمنطق العملي فكل واقع اجتماعي وكل ناتج حضارة هو في جوهره مركب من هذه العناصر الأربعة".¹²**

فماذا يقصد مالك بن نبي بهذه الشروط أو المبادئ الأربعة؟ وكيف تسهم من حيث كونها نظاما تربويا في عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري؟

-المبدأ الأخلاقي:

تعتبر الأخلاق من الموضوعات الأساسية التي عنى بها فلاسفة وفقهاء المسلمين بالبحث في مقاييس الخير والشر، وتكلم عدد من رجال الشرع في شروط المسؤولية، غير أن هذه الجهود كلها والتي لا يمكن أن ننكر قيمتها كانت تعبيرا إما عن رأي شخصي أو عن اتجاه المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها صاحب النظرية، ولم يكن التدليل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلا لغرض تدعيم هذا الاتجاه أو ذاك.¹³

واختلفت مدارس الفكر الغربي وتعددت تصوراته حول مصدر ووظيفة الأخلاق في حياة الفرد والمجتمع، إذ نجد المدرسة العقلانية و المدرسة الدور كيهمية والمدرسة الوجودية والمدرسة الماركسية ومدرسة التحليل النفسي...

تقوم نظرة ملك بن نبي في تحديدها لمفهوم الأخلاق على نفس المرجعية التي يرتكز عليها كل أقطاب المدرسة الإسلامية كالغزالي وابن تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال... وهذه المرجعية تتمثل في الوحي أي أن الأخلاق الإسلامية تستمد عناصر قوتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. يقول مالك بن نبي: " هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض".¹⁴

يقوم المبدأ الأخلاقي عند مالك بن نبي ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية ، أي بتشكيل عالم الأشخاص لذلك نلاحظ أن مالك بن نبي قد ركز على البعد الاجتماعي للأخلاق فاهتم بالوظيفة الاجتماعية لسلوك الفرد وإسهاماته الفاعلة في عملية البناء الحضاري.

يمثل المبدأ الأخلاقي الإسمنت الذي يقوم وبالضبط ببناء عالم الأشخاص، ويجعل من الإنسان كائنا اجتماعيا رساليا وهو الذي يحدد للثقافة خصوصياتها يقول مالك بن نبي: "والحقيقة الأولى التي تتبادر إلى أذهاننا هي أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع إلا إذا شملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص. ونحن إذا دققنا في هذا العنصر فإننا نرى أنه لا بد أن يكون خلقيا فإذا قررنا وجود هذا العنصر بوصفه ضرورة منطقية اجتماعية فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلا من فصول الثقافة وحققنا شرطا أساسيا من شروطها وهو المبدأ الأخلاقي".¹⁵

يرى مالك بن نبي أن المبدأ الأخلاقي يعد شرطا هاما من شروط فعالية الفرد والمجتمع غير أنه ليس كافيا ولا تتم وظيفته الحضارية إلا بتوفر عناصر أخرى تتكامل

وتتفاعل معه، وتتمثل هذه العناصر وهي شروط الفعالية في المبدأ الجمالي والمنطق العملي والعلم أو الصناعة على حد تعبير ابن خلدون.

-المبدأ الجمالي:

يعد مفهوم الجمال **ESTHETIQUE** مبحثاً للقيم ويعني بدراسته فلاسفة ونقاد الفن ولم يجد علم الجمال مكانه وشكله كعلم مستقل وكأحد علوم الفلسفة وفروعها حتى القرن الثامن عشر مع الفيلسوف الألماني ألكسندر بومارتن **A.BOUMARTEN**، حيث نجد أن إسم علم المجال **ACSTHETICS** في كتابه تأملات في الشعر.¹⁶

ولكن هذا لا يجعلنا ننفي ما أنتجه فلاسفة اليونان وقدماء المصريين والبابليين من فكر فلسفي تتخلله أفكار جمالية، أي أن علم الجمال تاريخياً يرجع ظهوره إلى نحو 2500 عام مضت في عهد مجتمع الملكية العبودية في بابل ومصر والهند والصين وقد تطور بدرجة كبيرة في اليونان القديمة.¹⁷

يبحث علم الجمال في مسائل الجمال والبشاعة بوجوهها الإبداعية والنقدية والنظرية ويتناول كيفية إبداع الفنانين لمنتجاتهم وظروف ذلك ، وكيف يتذوق الناس هذه الأعمال الفنية، وكيف يشعرون بإزائها ، وكيف يثمنون تلك الأعمال، وإلى الآثار التي يتركها تذوق تلك الأعمال الفنية في أفكار الناس وفي مشاعرهم وفي حياتهم اليومية. هذه الجوانب الإبداعية والنقدية تستشير قضايا نظرية تشكل الجانب النظري في علم المجال.¹⁸

تقوم نظرة مالك بن نبي للجمال على تحديد أبعاده ووظائفه النفسية والاجتماعية، فالجمال يعتبر عنصراً هاماً من عناصر التغير الاجتماعي ووسيلة من وسائل عملية البناء الحضاري وهو الذي يجعل ثقافة ما متميزة عن الثقافات الأخرى ، وهو العنصر الذي يصوغ صورة المبدأ الأخلاقي، أي أن المبدأ الأخلاقي لا يؤدي وظيفته في البناء الثقافي والاجتماعي والحضاري إلا بتوفر عنصر الجمال.

يقول مالك بن نبي: "الأساس الثاني الذي تقوم عليه الثقافة هو ذوق الجمال الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص فهو يضيف على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام ألواناً وأشكالاً. فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته"¹⁹

يعرف مالك بن نبي الجمال بأنه كل ما يتذوقه الإنسان في حياته اليومية من موسيقى وما يرتديه من ألبسة وما يمارسه من عادات وتقاليد ويشمل أيضاً طريقة تنظيم البيوت وأساليب الضحك ومسح الأحذية وتطهير البدن وتزيين المحيط ...²⁰ ويركز أساساً على وظيفته التربوية والاجتماعية والحضارية ، ويعد ذوق الجمال من أهم العناصر الديناميكية

في الثقافة لأنه يحرك الهمم ويحقق شرطاً من أهم شروط الفعالية. كما يعتبره المنبع الذي تنبع منه الأفكار وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع.

إن الإنسان كائن اجتماعي يتفاعل مع ما ينتجه مجتمعه من صور جميلة أو قبيحة ، وعلى أساسها يعبر إما عن انسجامه وتكيفه ، وإما عن عدم توازنه مع محيطه الاجتماعي فالصور القبيحة تولد انطباعات نفسية قبيحة لأن القبح الذي تمتاز به بعض الأشياء يؤثر على الفرد ويجعله ينفر منها لأنه يتألم لما يبدو له من نقصان فضيع ، فهي أشياء تشعر الفرد بوجوده يتناقض حالة اصطدامه بها ، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة تجعل الفرد يعاني من حالات التشاؤم والتذمر والإحباط، والصور الجميلة تدفع بالإنسان إلى الخلق والإبداع والتفنن في الأعمال والرغبة في الإنتاج وبالتالي فالأفكار انعكاس للمحيط الاجتماعي ونتاج له يقول مالك بن نبي: "الجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال يوحي للإنسان بأفكاره، ويطبّعها بطابعها الخاص من الذوق الجميل أو السماحة القبيحة" ²¹

وهكذا فإن المجتمعات المتحضرة تولي أهمية كبيرة للجمال لأنه مقياس تخلف أو تطور المجتمع وعلامة على تحضره يقول بن نبي: "إن الجمال هو وجه الوطن في العالم فأنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه" ²².

لا يمكن للمبدأ الجمالي أن يقوم بوظيفة التغير الاجتماعي والبناء الحضاري إلا إذا كان له طابعه الذي يحدد غاياته وأهدافه، هذا الضابط يتمثل في المبدأ الأخلاقي لأن كل مجتمع ينتج مهما تكن درجة تطوره قيماً أخلاقية وجمالية نلتزمها في عاداته وتقاليده وأعرافه، أي في أسلوب حياته، فقد اعتبر مالك بن نبي المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي من القوانين التي يخضع لها نشاط المجتمع وتقوم عليه حضارته يقول مالك بن نبي: "إن هناك على الخصوص صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة، إذ أنها تحدد طابع الثقافة كلة واتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه" ²³.

ويمكن على- تعبير مالك بن نبي- أن نصوغ هذه العلاقة في صورة جبرية مفادها:

مبدأ أخلاقي + مبدأ جمالي = اتجاه حضارة. ²⁴

-المنطق العملي:

يعد المنطق العملي شرطاً هاماً من شروط فعالية الفرد والمجتمع ويعرفه مالك بن نبي بأنه: "كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى نستسهل أو نستصعب شيئاً بغير

مقياس يستمد معاييرها من واقع الوسط الاجتماعي وما يشتمل عليه من إمكانيات إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياساً نظرياً يستنتج به نتائج من مقدمات محددة غير أنه من النادر جداً أن نعرف المنطق العملي أي استخراج أقصى ما يمكن من الفوائد من وسائل معينة.²⁵

لقد تردد مفهوم المنطق العملي في النظرية الماركسية والنظرية البراغماتية، إذ يتخذ في النظرية الماركسية معنى البراكسيس Praxiss أو الممارسة حيث استخدم ألتوسير هذا المصطلح ليشير إلى الفعل الإنساني.²⁶

وتتخذ في النظرية البراغماتية معنى البراغما وهي كلمة يونانية الأصل يقصد بها العمل، إذ ترى هذه النظرية أنه إذا ثبت أن اعتقاداً ما ينفع عملياً فهو صادق، فقانون الجاذبية مثلاً قد أكد الواقع صحته وبالتالي فهو اعتقاد صحيح ونتائجه نافعة يقول وليام جيمس: "الصحيح هو ما يتفق وأفكارنا، مثلما أن الحقيقي هو ما يتفق وظروفنا العملية اتفاقاً مستمراً بالطبع ويسري على كل جانب".²⁷

استمد مالك بن نبي مفهوم المنطق العملي من القرآن الكريم ومن ملاحظاته التي استهدفت أسلوب حياة الإنسان الفرنسي، ويتجلى المنطق العملي في القرآن الكريم في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" [سورة الصف الآية: 2-3].

لاحظ مالك بن نبي أن الإنسان المسلم لا يجسد أفكاره على أرضية الواقع الاجتماعي، وأن سلوكه يتسم بالجمود والكسل والفتور وتضييع الوقت... فتحوّلت هذه السلوكات إلى ظواهر اجتماعية مرضية لأنها تفتقد لعنصر العمل وغاياته. هذا العمل الذي يحول الفكرة إلى ممارسة ميدانية. يقول مالك بن نبي "إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقاً لمبادئ القرآن، و مع ذلك فمن الصواب أن نقول: إنه يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي".²⁸

وقد تبين لمالك بن نبي أن سلوك الإنسان الفرنسي يتميز بالفعالية والجدية والحركة والنشاط بينما يتميز سلوك الإنسان الجزائري بالشلل والعقم والجمود إذ يقول على ضوء هذه المقارنة: "يقال أحياناً أن الشعب الفرنسي ذو دعابة، هوايته ترقية الأشياء وضعها لنفسه، بما لديه من وسائل، والواقع أن الفرنسي، ما إن يخرج من مكتبه أو مصرفه حتى يصير في بيته نجاراً وحداداً وكهربائياً ومصالح أقفال ومفاتيح، فتراه يدق أو يخرم ثقباً في حائط، فلعله بذلك يصنع شيئاً بكلفة أكثر من ثمنه لو اشتراه جديداً، أو كلف به صاحب المهنة، ولكنه يبرهن بذلك على أنه رجل الحضارة التكنية التي تحلل الذرة وترسل الصواريخ. ولرب أن الأطفال ينشئون في هذا الاتجاه منذ صغرهم، إن الهدية الأولى التي تقدمها لهم

الأسرة لعب الميكانو. يقابل ذلك أنه في الجزائر على سبيل المثال وفي الفترة التي نتحدث عنها، لا يجد رجل الريف في بيته إذا أراد إصلاح آلة محراثه للحراث، مطرقة ولا مسمارا ولا قطعة سلك بينما يتسلى رجل الحاضرة بلعب الدومينو والأوراق".²⁹

- العلم أو الصناعة:

يقصد مالك بن نبي بالعلم أو الصناعة: " كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم".³⁰

وقد استمد هذا المفهوم من العلامة ابن خلدون الذي اعتبر التعليم، واللغة والغناء والوراقة والطب والخط والكتابة والحياسة والخياطة. من الصنائع يقول بن خلدون: " إعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة الأعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد إلا من خلال ما هو ضروري في العمران أو شريف الموضع فنخصها بالذكر ونترك ما سر لها فأما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والخياطة أما الشريفة بالموضع فالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب".³¹

يرى مالك بن نبي أن الصناعة شرط هام من شروط فعالية الفرد والمجتمع وعنصر بنيوي في تركيب الثقافة وبدونها تفقد الثقافة وظيفتها ، حيث تمثل التربية وسيلتها في بث تلك الشروط ، وتعمل على تغيير صفات الفرد ، وتحويله من كائن طبيعي إلى كائن اجتماعي ترتكز عليه عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري إذ يقول: " فالمبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي لا تكون وحدها شيئا من الأشياء إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه والعلم أو الصناعة حسب تعبير بن خلدون يكون عنصرا هاما في الثقافة لا يتم بدونه تركيبها ومعناها. فهو إذا عنصرها الرابع".³²

وقد حث على تربية الأفراد وتوجيههم توجيها فنيا لإكسابهم حرفا ومهنا مختلفة، ولعله كان يشير إلى أن استقرار المجتمع وتطوره مرتبط بضرورة التقسيم الاجتماعي للعمل الذي يتطلب التخصص في الوظائف المهنية في عملية الإنتاج المادي. ويهدف التوجيه الفني والصناعي عند مالك بن نبي إلى خلق مهن وحرف: " تتيح لرجل الفطرة ورجل القلة (المدينة) أن يلجا معا باب الحضارة التي بدأت فعلا تشرق علينا شمسها، ونحن واقفون على مفترق الأقدار وفي مهب الأهواء والمبادئ، وشعوبنا قلقة لا تعرف لنفسها طريقا".³³

تهتم الشعوب المتحضرة بالمهن وتخصص لها مدارس ومعاهد عليا تكون أفرادا أكفاء يتقنون هذه المهن والحرف فقد لاحظ مالك بن نبي أن حرفة الرعي مثلا لها قيمتها الاجتماعية في أوربا وفي فرنسا بمدينة "رامبولية" في ضواحي باريس حيث يتخرج الرعاة

من مدارسها، ولو أجرينا مقارنة بين راع عربي وراع فرنسي وكيف يقود كل منهما قطيعه لعلنا أي فرق بينهما.³⁴

في نفس الاتجاه يؤكد محمد الغزالي نظرة مالك بن نبي لمفهوم الصناعة أو العلم مبينا وظيفته في البناء الحضاري. يقول الغزالي: "والعلم تعبير شامل لكل مجالات المعرفة وتنمية القدرات العقلية والتقنية والحرفية والوظيفية وتنمية الملكات الروحية والفنية والجمالية".³⁵

يؤكد مالك بن نبي في نظريته للثقافة من حيث كونها نظام تربوي يرتكز على نسق من الشروط التي تتميز بفعاليتها ودورها في التغير الاجتماعي و البناء الحضاري على أمرين اثنين هما:

- ضرورة مراعاة ترتيب شروط فعالية الثقافة والحفاظ على توازنها لأن: "أي خلل يحدث في هذه العلاقات فإنه قد ينتهي في آخر المطاف إلى خلل في توازن الحضارة وفي كيانها".
- توجيه الثقافة فهو: "قوة في الأساس في السير ووحدة في الهدف...وتجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت".³⁶

الخاتمة :

ينتمي مالك بن نبي للمدرسة الإسلامية الإصلاحية ، ولكنه أحدث تجاوزا معرفيا معها تمثل في إعطاء الأولوية للإنسان في عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري ، واتخذ من الثقافة نظاما تربويا تتشكل من مبادئ أربعة متكاملة ومتفاعلة وهي : الأخلاق والجمال والمنطق العملي والعلم ، وقد ساهم في هذا التجاوز المعرفي تكوينه العلمي في مجال العلوم البحتة واطلاعه الواسع على الدراسات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية الغربية ، وإلمامه بالفكر الإسلامي الكلاسيكي والحديث ، واعتماده على تفسير النص القرآني والسني تفسيراً اجتماعياً .

قائمة المراجع:

- 1- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، ط5، 1986، ص 50.
- 2- أحمد أمين، زعماء الإصلاح، موفم للنشر، 1990، ص 91- 92.
- 3- محمد فهمي عبد اللطيف، جمال الدين الأفغاني والوحدة الإسلامية، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ص 105.

- 4- طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب ط2، 1992، ص 132.
- 5- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 51.
- 6- طهاري محمد، مرجع سابق، ص 80.
- 7- أحمد أمين، مرجع سابق، ص 55.
- 8- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 53-54.
- 9- المصدر نفسه، ص 54.
- 10- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، ط5، 1991، ص 26.
- 11- المصدر نفسه، ص 129.
- 12- المصدر نفسه، ص 27.
- 13- محمد بدوي، مقدمة كتاب دستور الأخلاق في القرآن، دراسة في النظرية الأخلاقية في القرآن لمحمد عبد الله دراز، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار البحوث العلمية، ط6، 1985، ص 66.
- 14- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر : عبد الصبور شاهين ، عمر كامل مسقاوي دار الفكر ، دمشق، ط4، 1987، ص 94.
- 15- مالك بن نبي ، تأملات ، مصدر سابق ، ص 148
- 16- أ.نوكس، النظريات الجمالية، كانت، هيجل، شوبنهاور، ترجمة محمد شفيق شيا، منشورات يحسون الثقافية، ط1، 1985، ص 13.
- 17- م. روزنتال، ب. يودين، الموسوعة الفلسفية، تر : سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، ط5، 1975، ص ، 305.
- 18- أ. نوكس ، مرجع سابق ، ص 25-24
- 19- مالك بن نبي، تأملات ، مصدر سابق، ص 148.
- 20- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 101.
- 21- المصدر نفسه، ص 108.
- 22- المصدر نفسه، ص 108.
- 23- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق ، ص 102.
- 24- المصدر نفسه ، ص 108
- 25- المصدر نفسه، ص 102
- 26- إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999، ص 231.
- 27- جود ، س.ي ، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة ، تر : محمد شفيق شيا، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ط1981، ص 91.

- 28- مالك بن نبي ، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 103.
- 29- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر ، دمشق ، ط2، 1984، ص 221-222.
- 30- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 125-126.
- 31-ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ط7، 1989، ص 405.
- 32- مالك بن نبي، تأملات، مصدر سابق، ص 151.
- 33- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق ، ص 104.
- 34-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، دمشق ، ط2، 1969، ص 126.
- 35- محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، دار البعث، الجزائر، 1987، ص 207.
- 36- مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 112.